ورقة عمل د.مراد وهبه في

ندوة الطفل فيلسوفا

الطفل متفلسفا

قد يبدو عنوان هذه الورقة صادما. فالرأي الشائع أن الانسان لا يمنح لقب فيلسوف أو متفلسف إلا بعد معاناة مع الموروث وما تفرزه من أفكار ناقدة تلتف بعد ذلك حول فكرة محورية ترتبط معها بعلاقات منطقية، ومع ذلك فهذا الرأي الشائع في حاجة إلى مراجعة شأنه في ذلك شأن أي رأى يمكن أن يتجاوزه الزمن.

وأن استند في هذه المراجعة إلى عبارة قالها أرسطو .. يشتهون المعرفة بالطبع. يدل على ذلك أن الحواس تمتعهم لأنه بغض النظر عن نفعها فأنها معشوقة لذاتها، وبالأخص احساس البصر.

فنحن نؤثره على غيره من الاحساسات ليس فقط حينما نقصد إلى الفعل بل حينما لا نتوخى أي فعل. وسبب ذلك مردود إلى أن البصر أكثر الحواس اكتسابا للمعارف. كما أنني استندت إلى عبارة أخرى لأرسطو .. وهي أن الدهشة أساس التفلسف. وإذا ألفنا بين أحساس البصر والدهشة حصلنا على فكرة ثالثة وهي أن أحساس البصر والدهشة متلازمان في البداية التي تكمن في أن الطفل يصرخ أثناء خروجه من الرحم، وهو لا يصرخ من الألم إنما يصرخ بسبب التناقض الذي ولدته الدهشة مع الأبصار لعالم مغاير.

وفي عبارة أخرى يمكن القول إنه التناقض بين احساسه بالأمن وهو داخل الرحم، واحساسه بعدم الأمان وهو خارج الرحم. الطفل اذن في حالة دهشة، أي في حالة تفلسف وهو أمر يستلزم أن يكون فيه عقل الطفل متكملا بالضرورة. وأظن أن هذه العبارة هي العبارة الثانية الصادمة في هذه الورقة. إلا أن الصدمة يمكن أن تزول بعد إثارة السؤال الاتي:

كيف يفهم الطفل لغة هو يجهلها؟ هذا مع ملاحظة أنه يفهمها استنادا إلى ما يراه من إشارات وانفعالات تبدو على وجوه المحيطين به، وهو لم يلبث أن يترجمها بعقله ولكنه عاجز عن التعبير لغويا.

والسؤال بعد ذلك:

ماذا نفعل بالطفل ونحن نربيه؟

نرتكب جريمة وهي قتلنا لدهشة الطفل، وبالتالي قتل تفلسفه. والغاية من ارتكاب جريمة القتل ادخال الطفل في نسق منغلق على الموروث بما ينطوي عليه من محرمات فتتوارى الدهشة ويمتنع التفلسف ومن ثم يمتنع الابداع. الطفل اذن منذ البداية متجه نحو الابداع ولكنه متجه أيضا نحو إبطال هذا الابداع.

وهنا تحضرني تجربة الفنان المصري المبدع (حبيب جورجي). فقد جمع هذا الفنان ستة أطفال من الشارع وأسكنهم بجواره، وهيأ لهم وسائل التعبير التلقائي بمنأى عن أي نوع من أنواع التدريب التقليدي ألا ما كان يستوحونه من خيالهم متروكين لكي يستنبطوا التعبير الذاتي المبدع من أنفسهم.

وهؤلاء الأطفال يعيشون جميعا في عالم كل ما فيه يدفع الى الابداع. وقد صبغت مبادئ هذا الفنان طابع أنظمة التربية في مصر فسخرت طريقة التدريس لإبراز عملية الابداع عند الأطفال. وهنا حذر حبيب من شحن رؤوس الأطفال بالمعلومات لأنها في رأيه، تخنق الابداع.

وهذا التحذير يكشف عن التناقض بين الذاكرة المختصة بحفظ المعلومات وترديدها، وبين الابداع المختص بتجاوز الحفظ إلى البحث عما هو جديد. وفي عبارة أخرى يمكن القول إن ثمة تناقضا بين ثقافة الذاكرة وثقافة الابداع.

وهذا التناقض كامن في علاقة كل منهما بالزمان. فثقافة الذاكرة تدور حول المحافظة على الوضع القائم الذي يفضي مع التطور الى وضع مضى. ومن هنا يمكن القول إن ثقافة الذاكرة تدور على رؤية ماضوية أما ثقافة الابداع فتتجاوز الوضع القائم إلى وضع قادم، ومن ثم فهي تدور على رؤية مستقبلية.

خنق الابداع اذن يتم عندما نكتفي بثقافة الذاكرة. وهنا ينبغي التساؤل عن العوامل التي تدفعنا إلى الاكتفاء بهذه الثقافة. إنها المحرمات الثقافية التي ندفع بها إلى عقل الطفل منذ بداية العملية التربوية والتعليمية. ومما يبرر لزوم المحرمات الثقافية توهمنا أن عقل الطفل سلبي، وأنه لا يتكون الا بفضل ما نقدمه من معلومات تقف عند حد المستوى الحسي ولا تتجاوزه

إلى المستوى التجريدي بدعوى أن التجريد عملية يصعب على عقل الطفل أن يرقى إليها في بداية تفكيره.

وهذا هو رأى بياجيه الذي يرى أن شعور الطفل بذاته أمر فردى في جوهره. فالطفل يبدأ حياته وهو في حالة انطواء ذاتي تام autism وبعد هذه المرحلة يمر الطفل بمرحلة التركيز حول الذات egocentrism قبل أن يتمكن من تصور الاخرين في موقف شركاء تقوم بينه وبينهم علاقات من التبادل، إذ إنهم يشاركون الوجود، ويسوغ لهم أن ينظروا إليه كما ينظر إليهم وإن اختلفت وجهة النظر. وهذا الانتقال الذي يتم في الشعور حول سن السابعة، من حالة الاعتقاد بأن الشخص هو وحده موجود إلى الاعتقاد بتعدد الأشخاص، هو ما ينظم بطريقة أساسية تطور الطفل من الناحية العقلية.

وعلى الرضد من رأى بياجيه رأى فالون الذي يذهب إلى أن المولود الحديث ليس نسقا مغلقا. فحركاته واسارير وجهه ونبرات صوته هي تعبيرات مزدوجة التأثير: تأثير صادر عندما يعبر الطفل عن رغباته، وتأثير وارد هو ما تنيره هذه التعبيرات من استجابة الأخرين. وتظل هذه التأثيرات المتبادلة في حالة اختلاط بحيث ينعدم التمييز بين الذات والأخر.

نخلص مما سبق إلى أن الخلاف بين بياجيه وفالون يدور على العلاقة بين الذات والأخر في مرحلة الطفولة. فالأخر عند بياجيه يظهر متأخرا في حين أنه عند فالون في صميم الذات منذ البداية. وفى تقديري أن هذا الخلاف يتجاوز سيكولوجية الطفولة إلى فلسفة الطفولة لأنه إذا كان الأخر رمزا على المجتمع، وإذا كان المجتمع من نتاج العلاقة بين الأنسان والبيئة فالسؤال اذن: **ماهى طبيعة هذه العلاقة بين الانسان والبيئة؟** إلا أن هذا السؤال يسبقه سؤال: **ما طبيعة هذه البيئة؟ إنها البيئة الالكترونية التي يبدأ الطفل في التعامل معها عندما يكون عمره سنة أو أقل.**

وهي بيئة تثير فضوله في التساؤل عندما يكون قادرا على النطق. ومن هنا يدخل الطفل في علاقة عضوية مع هذه البيئة الإلكترونية التي يكتشف مع الوقت أنها تعطيه الأخبار والمعلومات وأنها تثير فيه الفضول في الكشف عن العلاقات الكامنة وعن "السبب" الكامن وراء هذه العلاقات. وعند التساؤل عن السبب تبدأ عملية التفلسف عند الطفل في سن الثالثة فيسأل: **لماذا هذا هكذا؟** وعلى المجيب أن يكشف في اجابته عن علاقات محددة، وإلا فان الطفل سيردد نفس السؤال.

وإذا راوغت فأغلب الظن أن الطفل سيتولى الإجابة دون أن يعلنها ولن نعرف بعد ذلك ما يدور في عقله، ولا أدل على صحة رأيي من التأمل في طفولة أينشتين. ففي سن الخامسة رفض الانصياع للأسلوب التقليدي في التعلم والذي يستند إلى التلقين والحفظ والى العقاب البدني إذا تمرد على هذا الأسلوب. وكانت متعته في أن يعلم نفسه بنفسه دون أن يستند إلى النسق التعليمي.

ولم يكن يستهويه من العلوم سوى الرياضيات. ومن هنا قال عنه مدرسه إنه طفل مشاغب. وبسبب ذلك استدعى والده لإخباره بأن ابنه هو كذلك. وهنا أثار الوالد هذا السؤال: **ماذا تقصدون بلفظ مشاغب؟** وكان الجواب أنه يجلس في مؤخرة الفصل ويبتسم. ومن هنا سمى أينشتين الفيلسوف المبتسم في رؤيته للكون.

التفلسف اذن عملية ملازمة لعقل الطفل، ومن ثم فالنسق التعليمي يلزم أن تكون الغاية تخريج بشر متفلسفين للارتقاء بالحياة بعيدا عن إرهاب هذا الزمان المتمثل في قتل التفلسف في عقل الانسان، وبالتالي في قتل العقل ذاته.

وفي هذا السياق كله يمكن القول إن ما ورد من أفكار في هذه الورقة هو مواصلة لمشروع "الطفل المبدع" الذي تبنته الدكتورة الأستاذة (منى أبو سنة) عندما كنت مديرة لمركز تطوير تدريس اللغة الإنجليزية في التسعينات من القرن الماضي، بل يمكن القول أيضا بأنه مجرد صدى لما ورد من أفكار في مجلة "فلسفة الأطفال" التي أعلن عن تأسيسها في ٩ فبراير ١٩٨٩ " مركز نيويورك للتربية التأملية". وكانت الغاية من تأسيسها وضع برامج للمدارس الراغبة في تبنى فلسفة الأطفال. وأظن أن المشروعين يمكن اعتبارهما عاملا أساسيا في اجتثاث جذور الإرهاب المتفشي مرضيا ووبائيا في هذا الزمان.

وفي هذا السياق أيضا يمكن ل "المجلس العربي للطفولة والتنمية" أن ينخرط في هذا المسار تحت عنوان "الطفل العربي متفلسفا" للمشاركة في مواجهة فكر الإرهاب.